بين خفقاتِ أبي المنذر!

في صحيح مسلم وفي كتاب فضائل القرآن يحلق بنا أحد أئمة قُراء الصحابة (أبو المنذر) أُبيّ بن كعب رضي الله عنه عاليًا عاليًا، لكن بين خفقات صدره، وجلال هيبته لمولاه جل جلاله، بين يدي إمام القراء وسيد المرسلين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، في أحد مجالس الإقراء وتعليم القرآن العظيم..

يقول أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ : إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَا، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَدْ غَشِيَنِي ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا . إلى نهاية الحديث

تخيلوا معي المشهد كما وصفه صاحبه (أبو المنذر) ،نعم .. وقع في نفس أُبيّ بن كعب رضي الله عنه شكًا أو تكذيبا من اختلاف أحرف قراءة أصحابه وتصديق الرسول عليه الصلاة والسلام لهما، ليقرأ النبي عليه الصلاة والسلام صفحات ذلك في عينيه فيضربه في صدره، ليصف حاله أُبيّ بعدها: " ففضتُ عَرَقًا، وكأنما أنظر إلى الله عزوجل فَرَقًا"، أي رهبة؟، أي عظمة؟، أي تأثير فوري بل أي صورة لغلبة الحقِّ هذه؟!، أنّى لنزغة الشيطان أن تقع في صدرك يا أبا المنذر؟، بل أنّى لها البقاء بعد ضربة كفِّ النبي عليه الصلاة والسلام الشريفة في صدرك؟!، لتفيض بعدها عَرَقا وتقرّ بالحق بين يدي نبي الأمة إقرار العارفين الموقنين بلقاء ربهم، وكأن لسان حال تلك الضربة:

صدرك يا أُبيّ الذي يحوي كلام ربه وجلال الحق ونور الهدى لا مكان لنزغات الشيطان فيه، فلا تهتز ولا تشك ولا تزعزعك صروف الماجريات وأحوال الهالكين، فاربأ يا أبا المنذر بطهره أن تلوثه نزغات شيطانية أو تغريه أهازيج

الهوى وبهرجة الدنيا، اربأ به عن هذا وذاك واحمه بسياج التقوى ونور العلم الرباني!.

ما أعظم غبطتنا لك يا أبا المنذر أن نلت شرف الصحبة وشرف تلك الضربة التي سمت بك خشوعا ورهبة حتى وكأنك تنظر إلى الله عزوجل فرقا وخشية، أخبرنا يا أُبيّ كيف يسمو القرآن بصاحبه حتى يجد عظيم خشيتك التي وصفت.. أخبرنا فقد تُقنا إلى السمو الرباني الذي سما بك في مدارج اليقين بالله ومعرفته جل جلاله.

ومع خفقة أخرى ...

لم تنته قصة خفقات صدر أبي المنذر رضي الله عنه عند ذاك الموقف، فإن كانت في موقفها الأول راهبة لربها خاشعة فهي في الثانية فَرِحة مبتهجة، وقد كان لكفّ رسول الله عليه الصلاة والسلام الشريفة ضربة في صدره أيضا لكن في مناسبة مختلفة تماما..

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ " قَالَ : قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ : " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ " قَالَ : قُلْتُ : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } . قَالَ :

فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ : " وَاللَّهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ."

لم يكن مجرد خطاب عابر بين معلم وتلميذه، بل أظنه كان بمثابة التهيئة والإعداد لميادين الحياة الواسعة لكن بضياء القرآن ونوره، ليس هذا فقط، بل مع إعمال الفكر لما يحمله صدر أُبيّ، واستشعار أعظم آية مما معه من القرآن، ليس هذا فقط بل في إعادة السؤال المحمديّ عليه مرتين لاستخراج الآية من محفوظه وفقهه كان بمثابة التبجيل والتقدير له ثم امتداحه بعد ضربة في صدره التي كانت في مقام التزكية المحمديّة لما يحمله في قلبه من عظيم كتاب الله عزوجل ، حقًا وصدقًا ليهنك العلم أبا المنذر!.

ومع خفقة أخرى أيضًا، تلك التي تعلوها الرهبة والفرحة معًا، بل قد نطق دمع أُبيّ فيها ، في الصحيحين: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُبيّ: إن الله أمرني أن أقرأ عليك: (لم يكن الذين كفروا). قال: وسماني؟ قال: نعم. فبكى.

وكأن تلك الضربات التي كنت تتلقاها يا أبا المنذر من كفِّ النبي صلى الله عليه وسلم كانت تهيء صدرك للإقراء المقرون باسمك من رب السماء، (إن الله أمرني أن أقرأ عليك) لقد كانت تزكية ربانية محفوفة بالرهبة والتي قد أنطقت دمعك وحُقّ لها، ولا أعلم أن هناك شيئا قد كان يسع فرحتك السماوية حينها، ولن يكون أصلا!، لكن أخبرنا يا أبا المنذر أنك لم تنلها إلا بعد طول صحبة وحسن وفاء مع هذا الكتاب العظيم، أخبرنا أن خفقاتك البهيّة هذه لم تكن إلا كنتيجة بعد طول مدارسة وثني الركب في مجالس القرآن وحسن التلقي وأدب التعظيم لمنزل الكتاب جل جلاله ومعلمه عليه الصلاة والسلام.

أخبرنا يا أبا المنذر أن مرحلة إعداد القلب لتلقي الكتاب أعظم من تمرين اللسان على مخارج الحروف، أخبرنا أن الإقبال على هذا الكتاب بعين القلب والاستبصار يفوق متابعة آياته بالعين المجردة فقط، أخبرنا أن القراءة التي بالقلوب تسمو بنا في معارج لا حد لها من الخشية والتصديق..

أخبرنا أن إعداد متعلم القرآن لميادين الحياة والاستبصار بوقائعها بعين قرآنية أهم من إعداده لمنصات التكريم وإحصائه كعدد في نهاية العام، أخبرنا أن استحضار آية واستشعار معانيها في مواقف الحياة المتعددة أعظم إنجاز يستدعي المقرئون تحصيله في من هم تحت أيديهم بل ليهنهم العلم حينها!.

أخبرنا يا أبا المنذر عن عظيم الغرس المحمديّ الذي أثمر أثره فيك حتى حملت قبس الرسالة القرآنية متوجة بالعطاء والبذل والإقراء فهاهو عمر رضي الله عنه يُقرُ بفضلك ويقول " أقرؤنا أُبيّ" ، وهاهو أنس بن مالك رضي الله عنه يزهو بك بلغة الأنصاريّ الفخور ويقول: جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة، كلهم من الأنصار: أُبيّ، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وزيد بن ثابت.

ليس هذا فقط يا أبا المنذر فإن لك في ذاكرة الأمة وصية نبوية راسخة يتردد فيها اسمك جيلا بعد جيل "خذوا القرآن من أربعة ... وذكرك منهم : وأُبيّ بن كعب"

وكأن الغرس الأحمدي فيك يا أبا المنذر يخبرنا أن جودة المخرجات التربوية ليست تقاس بالظواهر، البناء الداخلي أهم، وهذا ما لايستطاع قياس أثره بعمق في قائمة الأعداد المصفوفة في تقارير الدور والحلق القرآنية، غرس تعظيم الله في النفوس وحمل هم الأمة هو الأثر الباقي الذي لا يرتبط بأشخاص ولا مؤسسات، أثر يُعلّم صاحبة لغة البذل الواسع الذي لايعترف بالمحدودية أو الشخصنة، البذل للأمة والنهضة بها وتطبيب جراحها بحكمة من منظار قرآني رباني سماوي!.

وكأن رسالة الغرس المحمدي تستحث معلمي القرآن الكريم ومتعلميه على غرس تعظيم الله ومحبته في النفوس ليسهل عليهم كل تغيير، ومن ثم غرس فضيلة طلب العلم فيها لتسمو لله وحده وتنصرف عنها دنايا الهموم وتتحرر من تسطيح الطاقات والأفكار.

(بين خفقات أبي المنذر) كانت مجرد محاولة (مختصرة) لتسطير معنى من معاني إجلال القرآن والفرح به متجسدا في أحد كبار قراء الأمة وتلامذة محمد صلى الله عليه وسلم..

سعيدة لإتمامك هذه الرحلة إلى هنا، وافر الشكر والإمتنان..

والحمدلله رب العالمين

نجلاء بنت نايف

Twitter: @Alnajla_N